مجلّة
اللّغة العربيّة وآدابها
رقم الإيداع القانوني: 2013-8004 ISSN: ر.د.م.د: 2352-9830

خطاب الهيمنة والهيمنة بالخطاب
قراءة في رواية "نساء كازانوفا "لواسيني الأعرج

د. علي حميداتو
جامعة البليدة2

تاريخ الإرسال : 2018/04/18 تاريخ القبول:06 /2018/05

الملخص:

تعتبر الرواية الجزائرية المنبر الأوفر حظا لمعالجة أهم القضايا الإنسانية بصورة عامة ، لما لها من قدرة على تجاوز الحدود، ولأجل ذلك نرى في رواية واسيني الأعرج "نساء كازانوفا" موضوع قراءتنا، تعالج قضية سيسيولوجية غاية في الأهمية ، وهي طرحها لمسألة الهيمنة الذكورية ، في مقابل الهيمنة النسوية التي تظل في حدود المقاومة فقط وفي شكلها الخطابي. كما تجلّت في الرواية إمكانية مقاومة العنف الرمزي المسلّط على الأنثى من لدن الذكر، وأنّ هذه الهيمنة الذكورية ليست ثابتة ولا يمكنها أن تكون أبدية..

Abstract :

The Algerian novel is considered as the luckiest area to deal with the main human thanks to its capacity to exceed the limits.The novel of Wassini Alaradji « NISSAA KASANOVA » dealt with an inportant crucial Sociological issue that about the male s dominance against the female s which is limited to a bottle of discours in its forme. It is also clear the possibility of the symbolic agressivity used upon the female from the part of the male. So that male s dominance is not permanent and can not last forever..

*** *** ***

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

1- تمهيد:

إذا كانت الرواية مجالا إبداعياً يتخطّى كل الحدود الدينية والثقافية والجغرافية ، فإنها لا محالة تأبى أن يكون لها موضوعات محددة تعبّر عنها، ولأجل ذلك فهي تعبّر عن عوالم لا نهائية وتخوض غمار كل التجارب الإنسانية ، وتتجاوز كل الحدود والطابوهات فهي لا تعترف بالقواعد المسبقة ولا تأتلف مع المعطيات الموروثة الساكنة - على حدّ تعبير فيصل درّاج-(1)

ومن هذا المنطلق نحاول في هذا المقال قراءة رواية "نساء كازانوفا "(2) للروائي الجزائري " واسيني الأعرج " الصادرة عن : موفم للنشر 2016 بحيث نجلّي خطاب الهيمنة الذكورية فيها ونوضّح سُبل المقاومة الأنثوية كما تجلّت في النص للإجابة على إشكالية محورية مفادها : هل الرواية تجسيد لمفارقة المعتقد paradoxe de la doxa أم تبرير للهيمنة الذكورية؟أم مقاومة نسوية؟

2- خطاب الهيمنة والعنف الرمزي:

إنّ الرجولة بمظهرها الإيتيقي (Ethique) نفسه، باعتبارها ماهية القوة(Vir) والفضيلة(Virtus) ومناط الشرف(Nif) ومبدأ حفظ الشرف الرفيع فيه، تبقى على الأقل ضمنيا غير منفصلة عن الرجولة الجسدية – كما يقول "بيار بورديو"-(3) .

وما نجده في رواية " نساء كازانوفا " هو التطابق والتجسيد الفعلي للمقولة السابقة ذلك أنّ الروائي "واسيني الأعرج" جعل من شخصية البطل(كازانزفا)/ لوط يملك ثراء فاحشا في مدينة "منارة سيتي "فهو من هذا الجانب لديه القدرة على أن يعُول أكثر من امرأة ، وأنّ بإمكانه أن ينفق على أكثر من عائلة ، فالرجولة في التقليد العربي والدين الإسلامي توجب نفقة الرجل على عائلته، أو من يعولهم من الإيماء والولدان ، وهذا معنى الرجولة في الثقافة الإسلامية والتقاليد العربية بصورة عامة ، وقد يكون هذا معنى القوامة على النساء، أي كثرة القيام على نفقة العائلة، وجلب ما من شأنه أن يعولهم به.

وإلى جانب هذا الأمر فـ(كازانوفا) يملك أيضا غريزة جنسية غريبة ، أو لنقل شبقية مفرطة(Erotisme) كما جسدته الرواية ، وهنا يتطابق معنى الرجولة بمظهرها الأخلاقي والرجولة الجسدية في شخصية البطل، الأمر الذي مكّنه من بسط هيمنته الذكورية وعنفه الرمزي على نسائه الأربع وخادمته.

لقد كان (كازانوفا) رجلا عاشقا للنساء ، أو هكذا تصوره الرواية، عادلا بين نسائه من حيث تخصيصه لكل واحدة منهن جناحا خاصا بها ومختلفا عن الأخريات، فهناك الجناح الأزرق تسكنه "زينا" وجناح شهرزاد الأحمر تسكنه "رقية" وجناح صافو البنفسجي تقيم فيه "ساراي" وجناح زرقاء اليمامة الأخضر تسكنه "لالة كبيرة".

ومع هذا العدل في أن يكون لكل زوجة من زوجاته الأربع سكنا خاصا بها، إلا أنّ ميله الجنسي لم يكن على قدر عال من العدالة الزوجية يقول الراوي:(مع الزمن تغيرت عاداته وأصبح أكثر ارتباطا بساراي ، لا يرى لياليه من دونها)(4) الأمر الذي جعل من نسائه الأخريات يتمرّدن عليه بمجرد أن تزوج "ساراي" وخطفت لُبّه ، وأصبح لا يرى دنياه مشرقة من دونها (لهذا كان حُبّه لساراي من وراء كل الفتن والاختلافات مع نسائه، كانت الوحيدة التي اخترقت غلالة أحزانه الخفية)(5) (ما حدث كان جديا وخطيرا في حياته الأسرية ، فقد تمرّدت عليه لالة روكينا ، ولالة كبيرة بالدرجة الأولى ، وامتدّ التمرّد إلى اللواتي غادرن الدار الكبيرة ، زينا ومباركة ، وكل من كانت له صلة به ، لضرب مصالحه وقاطعناه في الفراش . خوف مبطّن ظل معششا فيه . ليس منهن ولكن من محيطه كله)(6).

إنّ بنى علاقات الهيمنة الذكورية والعنف الرمزي لكازانزفا على نسائه لم يكن لها أي صراع أو مقاومة بادئ الأمر بل كانت النساء خاضعات للزوج، وقد يكون ذلك بسبب قبول الأنثى ورضوخها واستعدادها للحكم المسبق السلبي ضد المؤنث(7) بدليل عدم اعتراضهن لمبدأ تعدد الزوجات ظاهريا، لأجل ذلك لم يعلن صراحة في نص الرواية هذا الاعتراض أو التصدّي للزوج، لكنه ظل متواريا في قلب كل واحدة منهن، فقد كانت الغيرة تدبّ في قلوبهن كدبيب النار في الهشيم، فالاعتراض كان موجودا بالقوة في دواخلهنّ وهي حقيقة ما تكون عليه المرأة العربية عموما، وقد يكون الأمر كونيا.

ولكن حينما مال (كازانوفا) إلى "ساراي" حدث الصراع بالفعل وأبدت النساء حينها مقاومة للزوج. وفي هذا الصدد يقول "بيار بورديو": وعندما يطبق المهيمَن عليهم لمن يهيمِن عليهم ترسيمات هي نتاج للهيمنة ، أو بتعبير آخر عندما تُبنين أفكارهم وإدراكاتهم طبقا لبنى علاقات الهيمنة ذاتها المفروضة عليهم ، فإنّ أفعالهم من أمر المعرفة المتعلقة بهم حتما أفعال اعتراض وخضوع ، لكن أيّا كان وثيقا التناسب بين الوقائع ، أو سيرورات

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

العالم الطبيعي ومبادئ الرؤية والتقسيم المطبقة عليهم ، فإنّ ثمّة دائما مكان لصراع معرفي بخصوص معاني أشياء العالم وبشكل خاص معاني الوقائع الجنسية)(8).

يقول أيضا "بيار بورديو في هذا الشأن: (إنّ اللاتحدّد الجزئي لبعض الموضوعات يسمح في الحقيقة بتأويلات متناقضة تقدم للمهيمِن عليهم إمكانية المقاومة ضد أثر الفرض الرمزي .هكذا تستطيع النساء الاستناد الى ترسيمات الإدراك المهيمِنة (فوق/ تحت ،جامد / رخو ،مستقيم / منحني ، جاف / رطب ،..إلخ التي تقودهن إلى تكوين تصور سلبي جدا عن جنسهن الخاص بهن) (9).

إنّ هذا التصور السلبي الذي تشكّل لدي نساء كازانوفا عدا " ساراي " لم يكن له أن ينشأ إلاّ حينما زاغ (كازانوفا) ومال ميلا شديدا إلى " ساراي" وهنا نشأت المقاومة ضد هذا الفرض الرمزي، وعندها بدأ الإحساس بتلاشي السلطة الذكورية معنوياً، حيث عبّرت الرواية عن ذلك خاصة حينما يستحضر (كازانوفا/لوط) البطل تمرّد زوجاته . يقول الراوي عنه :(شعر بالبرد في ظهره. كان خائفا من أن تنفكّ الأواصر، ومعها تسقط المصالح، كان آباؤهم شركاء كبار في مشاريعه الواسعة. انفصالهم عنه تعاطفا مع بناتهم ، معناه تهديمه وتهديم أنفسهم) (10).

فشعور (كازانوفا) بإمكانية أن يتلاشى ما كان له أو تهديمه هو شعور بأنّ بنية الهيمنة الذكورية ليست أبدية ولا ثابتة ، وهذا ما أراد الكاتب أن يعبّر عنه من خلال هذا العمل الروائي، ذلك أنّ الهيمنة الذكورية كما تجلّت في النص وإن استحضرت كل الظروف والسياقات كالمال والجاه ، والقدرة المادية، والمعنوية لا يمكنها أن تثبت أو أن تكون أبدية ، وعندئذ تسنح الظروف لبروز خطاب المقاومة النسوية أو الهيمنة بالخطاب.

3- الهيمنة بالخطاب والمقاومة النسوية:

إنّ امكانية تفكّك المركزية الذكورية أو هدمها – كما أوضحنا في الفقرات السابقة- يتجلّى بوضوح في وصف السارد للشخصية الرئيسية (كازانوفا) بالخوف الشديد وبالأمر الخطير الذي يمكن أن يحصل له في حال تمرّدت نساؤه عنه وعبّر عن ذلك بعبارة (الهدم) أي هدم المصالح الكبرى وبالتالي ضياع السلطة (سلطة المال والجاه) وحينها لا يكون للهيمنة أي معنى أو أثر.

لقد عبّر الكاتب في نصه على هذه الإمكانية (إمكانية الهدم) على لسان أحد أقرباء "روكينا " وهو (خلدون) حينما قال لها في سياق استشارته حول مسألة التمرّد: (قلّلي من أنانيتك وحاولي أن تقفي مع لالة كبيرة ضدّه على الأقل ، ألست أنت من جرّها وراءه؟ يجب أن لا يشعر بأنه سيّد كلّ شيء. سيخاف من الموقف الجماعي . وجود زينا ومباركة معكما ، ولو من بعيد يمكن ان يخيفه لا تمنحنه فرصة أن يقوم من جديد)(11)

يستطيع نظام الهيمنة في الوجود عبر ذلك التواطىء العفوي والاستعداد الأسري الذي تُلقّنُ فيه المرأة كل قيم الوفاء والخضوع لشريك الحياة ، ولكن يمكن للنسوة أن تقاوم وأن تهيمن بدورها ولو بالخطاب ذلك ما نراه جليّا في خطاب (زوجات كازانوفا) حيث تظهر على جسد نص الرواية، وتبرز للوجود علامات عنف الخطاب الممارس على الزوج (كازانوفا) حينما أصبح لا يقوى على الحركة ، وأصبح في حال غيبوبة شبه كلية وأيقن أنه سيموت فقد سمح لزوجاته بعيادته الواحدة تلوى الأخرى للاعتذار منهن وسماع ما يردن قوله له في آخر أيامه ، وهو ما سنعرض له من خلال تحليل خطاب الزوجات والخادمة

أ/ لالة كبيرة:

مارس (كازانوفا) عنفا رمزيا على نسائه الأربع ، وكان لهذا العنف الشديد الأثر في الواقع على زوجته "لالة كبيرة" حيث أصبحت تتناول دواء الضغط وهو من آثار الهيمنة ، والحقيقة أنّ فكرة اختصار العنف الرمزي باعتباره عنفا (روحيّا) صرفا لا آثار له في الواقع هي فكرة يرفضها (بيار بورديو) ونعتقد من جهتنا صواب رأيه ذلك على الأقل ما يحاول الكاتب (واسيني الأعرج) أن يجسّده من خلال هذا العمل الروائي.

فشخصية "لالة كبيرة " انتفضت وقاومت هيمنة زوجها بعد أن سنحت لها الظروف ، فقد نهش جسدها وهدّم أنوثتها فعافها كالكلاب واشتهى غيرها وأصبح لا يطلب منها الشيء الكثير على حدّ تعبير الكاتب (12).

لقد حاولت كأترابها إسماع صوتها بنبرة يغلب عليها عنف الخطاب تقول لزوجها وهو طريح الفراش: (هل تصدّقني إذا قلت لك لا أجد كلماتي؟ ليس لي غنج نسائك الصغيرات ، أكبر واحدة منهن في عمر أصغر أبنائك لا أعرف كيف أتأوّه ، لأثبت لك ولو

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

كذبا رجولتك التي بدأت تتخلّى عنك ، بينما في اعماقي أسخر من عجزك ، تركت كلّ هذا لهنّ ، لم يعد جسدي يهمّني إلاّ بالقدر الذي يمنحني فرصة العيش بلا أمراض تثقله) (13).

وتقول الشخصية أيضا: (اسمعني بقلبك لأنّي أخاف أن تكون حواسك الأخرى قد ماتت نهائيّا ، أو شُلّت ، أعطيت وقتك كلّه للآخرين ، اعطني جزءا يسيرا منه لألعب معك لعبة الصدق التي كثيرا ما يتفاداها الأزواج) (14).

إنّ لعبة الصدق التي تقصدها "لالة كبيرة" تفاصيلها هي ما ستسرده بحضرة زوجها (كازانوفا)، والتي سيكون لها الأثر الكبير عليه ، إنها الهيمنة بالخطاب حيث كازانوفا لا يقوى على ردّه ، وهو في حال لا يقوى فيها على الحركة ولأجل ذلك نرى ذلك الوقع الأليم على نفسه حينما يستسلم خاضعا لسماع خطاب "لالة كبيرة" يقول الكاتب: (كان كازانوفا يتلوّن ويتغيّر وجهه باستمرار كلما سمع كلاما يهزّه بعنف داخليّا. فجأة أصبح أصفر مثل قشرة ليمون ، من حين إلى آخر يرتعد جسده كأنّ به نزلة برد ، أو كأنّ يدا ثقيلة كانت تحرّكه ، يشخص فجأة بعينيه في الفراغ ، لا ترمشان قبل أن تنغلقا من جديد مثل عيني دمية ثم تنفتحان لتظلاّ على هذه الوضعية للحظات ثم تعاودان نفس الحركة من البداية بشكل شبه آلي) (15).

هكذا إذن تسترسل "لالة كبيرة" في هيمنتها على زوجها وتمارس عليه عنف الخطاب، فبقدر ما لها من أثر على الزوج فإنها تنفيس لها ممّا مورس عليها آنفا حينما كان زوجها كازانوفا في أوج عطائه وقوّته تقول " لالة كبيرة" مرّة أخرى: (...في خفائهم ، نساء ورجالا يتغامزون من سذاجتي ، كيف بقيت مع لوط كل هذا الوقت ، وهو يخونها كلما سنحت له الفرصة؟ الذي لا يعرفونه هو أنّني أنا أيضا كنت أعرف كل التفاصيل ، وأعرف أكثر من هذا ، إنها علاقات كانت تمهّد لامرأة ستعبر عتبة هذا البيت وتستقرّ في فراش ربّيتُ وهما كبيرا ، أنه لن يكون إلاّ لي وحدي..) (16).

وتضيف "لالة كبيرة" مسترسلة في خطابها العنيف : (لكن الصبر يا حبيبي لوط ، يقتل ويغني في صمت لا أحد يراه إلا من يعانيه(...) حياتي معك كانت سلسلة من الخيبات لم تشذ عمّا سطّرته لي الأقدار المجنونة) (17).

ب/ مباركة:

يظهر من خلال نص الرواية أنّ هذه الشخصية (مباركة الخادمة) تحمّلت الكثير من سيّدها أو مغتصبها كازانوفا، ولأجل ذلك يظهر في خطابها له بأنّها لا تعبأ بما سيلاقيه من موت بطيء ، وتبدي لا مبالاة به ذلك على الأقل ما يظهر في قولها له: (كازانوووووفاااا...هل عرفتني؟ أناااااا؟ لا يهم. لو فقط تعلم كم إنّ حظّك كبير. لم أعد الآن معنية بموتك ، فأنت تموت من تلقاء نفسك. يااااه وبأيّة صورة. التآاااكل. أبشع موت ذاك الذي يأتي بالتقسيط. التآكل. لقد تغيّرت كثيرا . لم يعد شيء فيك يخيف.)(18)

هكذا اذن تصبح "مباركة " لا تخاف كازانوفا، مما يعني أنها ستمارس عليه هيمنة خاصة وسلطة يكون فيها للخطاب الأثر البالغ على نفسه حينما تستحضر التاريخ والحوادث والأزمات التي عانتها من معاملته لها، فقد كان يمارس عليها "كازانزفا " عنفا شديدا معنويا، و ماديا بالضرب المبرح (تساءلت إذا كان هو نفسه الرجل الذي كان كلما رفع صوته . وضعت رأسها بين يديها لأنها تدرك سلفا أنّ الضربة تلو الصرخة بسرعة ، ثمّ الشتيمة الثقيلة التي تمسّها وتمسّ أهلها . الضربة الجافة التي تورث دُوارا يكاد يسقطها أرضا)(19).

إذا كانت الفقرة السابقة تظهر مدى عنف كازانوفا في معاملته للخادمة (مباركة) فإنّها كذلك تضمر أيضا إمكانية المقاومة النسوية ضد عنف الذكورة ، وهي قيم غير شائعة في مجتمعنا العربي بوصفها قيما للجماعة ، وهي من هذا الجانب تجلّيها بالصورة المقتصرة على الخطاب فقط (الهيمنة بالخطاب) يجعلها قاصرة ومنقوصة عن بلوغ الهيمنة بمفهومها الدقيق ، ولكنها مع ذلك يمكنها أن تمثّل نسقا مضمرا يمكنه أن يبرز إلى العلن متى سنحت الظروف ، وحينها لا يمكن للهيمنة الذكورية أن تستمرّ أو أن تمرّ دون مقاومة، وقد يكون ما تطرحه الرواية فيما يمكن أن يكون هو هذا الضرب من علامات المقاومة النسوية المنتظرة مستقبلا.

إنّ عنف الخطاب الذي تمارسه الخادمة على "كازانزفا " لم يكن له أن ينشأ إلاّ بعد أن مارس عليها أبشع صنوف العنف من ضرب وشتم ناهيك عن قصة اغتصابها، فهي بذلك تقوم بردّة فعل قاسية -نعتناها من ذي قبل بالهيمنة بالخطاب-.

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

كانت الخادمة (مباركة) في حاجة ماسة إلى الأمان الزوجي وكانت مستعدة لأن تكون وفية لما لقّنتها العائلة والنظام الاجتماعي برمّته (20). ذلك على الأقل ما يمكن أن نستخلصه من قولها له: (كنت ككل البنات الفقيرات لا حقّ لي في رجل، إلاّ إذا تقدّم لي هو)(21)، وتقول أيضا: (أنا لست أكثر من تلك المرأة الهاملة يا سيّدي التي يبدو أنّك أكرمتها وأعطيتها قيمة باغتصابها)(22).

لقد وجدت الهيمنة الذكورية إذا كلّ الظروف مجتمعة لملء ممارستها والحضور المعترف به كونيا للرجال(23) حتى مسألة الاغتصاب نفسها تقول الخادمة (مباركة) :(وهل يحقّ لي أصلا أن ألومك) (24).

ومع هذا الاستعداد للخضوع للسيد/ كازانزفا باغتصابها، فإنّ وقعه عليها كان جرحا دفينا غذّى كل استعداداتها لأن تنتفض عليه وتمارس بدورها على كازانوفا هذه الهيمنة حينما سنح لها المقام، ذلك أنّها تعيد سرد القصة نفسها – قصة اغتصابها – بمرارة أمامه وعلى مرأى " الإمام زكريا" تقول: (...لالة كبيرة كانت في مستشفى التوليد، ارتميت عليّ بمجرّد دخولك البيت ، لم أفهم ما كنت تفعله بي ، ظننتك تلاعبني. لكنني أدركت بسرعة أنّك كنت تريد شيئا آخر. عندما حاولت أن أصرخ ، حشوت فمي بما وجدته قريبا منك. ربطة العنق الحمراء. ثم ألقيت بي أرضا. وربطت يدي إلى الوراء وإحدى رجليّ إلى طاولة المطبخ الثقيلة، ثم أمسكت بكلتا يديك ساقي الثانية وثبّتها تحت ذراعك اليسرى. كانت الوضعية قاسية. ويداي ورجلاي ، تؤلمني. لم تجد صعوبة كبيرة في نزع ألبستي الصيفية. لباسي الداخلي الخفيف جدا الذي كان يعيقك، مزّقته. رأيت نارا دموية تشتعل في عينيك. ثم رأيت عضوك المنتصب الذي أخافني. صرخت أنت مثل المنتصر: سترين من هو لوط. تشتهون وترفضون، وأعماقكن تغلي من الرغبة. تظنين أنّي لم أفهم غمزاتك بلباسك الذي يظهر كل الجنون المتخفّي فيك. سأريك اليوم ماذا يملك رجل مثلي بين فخذيه؟ ومع صرختي الكبيرة، غبت ولم أعرف ماذا حدث لي. عندما استيقظت كنت مفككة. شفتاي منتفختان. نزعت ربطة العنق الحمراء لتخفي الجريمة . وضعت منشفة بين فخذي لكي تمنع دم الاغتصاب من التسرب..) (25).

إن سرد مباركة لقصة اغتصابها من طرف "كازانوفا" وأمام مرأى الجميع يظهر مدى ألمها الدفين الذي ثارت بسببه ، وكأنه الشيء الوحيد الذي آلمها منه، ومع ذلك فإنّ

الاغتصاب نفسه لم يكن له أن يكون إلا بعد أن عرف المهيمِن/ الذكر استعداد الأنثى من خلال العلامات الذي ذكرها المعتدي في الفقرة السابقة ولأجل ذلك يقول " بيار بورديو" : (إنّ العنف الرمزي لا يتحقق إلا من خلال معرفة وجهل عملي يمارس من جانب الإرادة والوعي ، ويمنح ((سلطته المنوِّمة)) وأوامر دعوته إلى الانضباط. لكن علاقة الهيمنة التي لا تعمل إلا من خلال تواطىء الاستعدادات تنبع بعمق ، لأجل تأبيدها أوتحويلها أو تحوّل البُنى، والتي كانت تلك الاستعدادات نتاجا لها..)(26).

ج/ زينا

تختلف هذه الشخصية عن بقية الشخصيات الأخريات (الزوجات والخادمة) ذلك أنها كانت لا تشعر بأنها معنية بالرجل فقد اختارت واختارها ثم افترقا باتفاقهما مع يقول الراوي: (.. وضعت زينا رأسها بين يديها، وبدأت تتأمّل كل ما كان يحيط بها. كانت تريد أن تنتهي من كل شيء بسرعة ، لأنها لا تشعر بنفسها معنية كثيرا بالرجل. هو اختار وهي اختارت ، وافترقا بدون مشكلات وحرائق كبيرة..) (27).

ومع كون "زينا " غير معنية بالرجل فإنها مع ذلك تسمح لنفسها بسرد أخطائه، وما كان في نفسها شيء من زواجهما الذي لم يدم طويلا، ومع ذلك فقد قام كازانوفا بدعوتها ليسمع منها تقول " زينا" : (ماذا أقول يا سيدي؟ لولا نُبل القضية التي اعتمدتها، أن تلتقي بنسائك وتسمع حتى إلى عنفهن وقبح بعضهن، لقلت لك دعك من كل هذا. لست في حاجة لاختبار قدراتك على التحمّل ، فأنت تحمّلت وتتحمّل كثيرا. لكن إرادتك هي الأسبق يا سيدي .لا عليك، أنا هنا أيّا كانت خياراتك...) (28).

لقد كانت " زينا" تلوم نفسها بعد فراقها لزوجها، لماذا قبلت به زوجا وهي تدري أنها لا تكون له ولا يكون لها للأبد (بيني وبينك كانت المسافات تتسع منذ اللحظة الأولى. حتى تحوّلت إلى فجوة لدرجة أنني أتساءل كلما غفوت إلى نفسي : كيف قبلت بزواج كان محكوما عليه بالموت منذ اللحظة الأولى ؟) (29).

إنّ خطاب " زينا " لكازانوفا" زوجها السابق لم يكن فيه من العنف ما لمحناه في خطاب (لالة كبيرة ومباركة) ومع ذلك فإنّ وقعه عليه كان مؤلما ذلك على الأقل ما يمكن

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

أن نفهمه من خلال قولها له: (أفهم أنّ كلامي لا يعجبك مطلقا، تحمّلني أنا لا أعطيك درسا ، ولا أعاقبك ، فأنا في النهاية جئت فقط لأراك...) (30).

لم تكن "زينا " إذن مستعدّة لتسامح زوجها، مع نبل ما اختاره هو بنفسه بأن يسمح لزوجاته لقول ما عندهن وطلب العفو منهنّ، وما حضورها لتلبية الدعوة إلا لكي تظهر له بأنها لم تسامحه على ما فعل تقول " زينا" :(..كان كلّ شيء قد انتهى بيني وبينك.(31) وهي إشارة منها بأنّ عفوها عنه لا يناله، ويبقى عندئذ وقع ذلك على نفسية كازانوفا مؤلما جدّا.

د/ ساراي:

كانت " ساراي " المرأة الوحيدة التي شغف بها "كازانوفا " وكانت تحاول في كل يوم أن تكون له، مسخّرة كل ما تملك لتنسيه همّة في لحظات العناق، وكان بسببها أن تمرّدت عليه نساؤه الأخريات، ومع ذلك فقد كان كازانزفا يحس معها بطمأنينة بل وأدرك معها أنّ الجنس ليس عادة ليلية – كما تقول هي عن نفسها-(32).

وعلى الرغم من حبّها الشديد له، وميل كازانوفا لها أيضا فإنّ هذا الأخير لم ينتصر لها بمقتل إبنها "يوسف" فلذة كبدها ولأجل ذلك تقول لكازانوفا: (- لهذا يا لوط أخرج من بيت الجريمة فيه بلا عقاب. بدءا من اليوم أفكّ العهد الذي يربطنا. سأعود إلى بيتي وبيت أهلي . وأتمنى أن أرزق بقليل من الصبر حتى لا أجنّ..) (33).

لم تحضر "ساراي " إلى بيت كازانوفا لكنها أرسلت إليه بقرص مرن كانت قد سجّلته وعُرض عليه ليسمعه كازانوفا. كان فيه الكثير من الألم ، والحرقة بموت إبنها "يوسف " وبغدر زوجات كازانوفا اللواتي قمن بقتله، ومع ذلك لم ينتصر لها زوجها فقررت الرحيل إلى الجنوب، إلى أهلها.

وحينما جاءت الفرصة، لم تترك حادثة إلا وسردتها حتى تلك الخيانات مع السكريترات الصغيرات ليلا (34) لكن ألمها الكبير ظل مقتل يوسف، لأنها كانت تريد أن تكون أمّا تقول " ساراي": (تزوّجتك يا لوط لا طمعا فيك ، ولا في مالك. أرزاق والدي اتّسعت حتى شملت جزءا مهما من أراضي توات. ربما هناك سبب مبهم لم أفهم سرّه حتى اليوم؟ كانت بي حاجة إلى أمومة...)(35).

إنّ الأمومة هي التي جعلت من " ساراي " تقبل بالزواج من كازانوفا لكن هذا الأخير استرضى زوجاته حينما جئن إليه يبكين بمقتل يوسف، ولم ينتصر لساراي، فقد كان مقتل يوسف الحدث الأكبر في تغيّر ساراي من الأقصى إلى الأقصى، ولأجل ذلك تسلّط كل صنوف الخطاب لإذلاله وإلقاء الملامة عليه، ممهّدة بمقدّمات تشعرنا بأنّ ما ستسرده عليه سيكون مؤلما له ، وأنها في مقام يسمح لها بتسليط هيمنتها عليه ولو بالخطاب تقول "ساراي": (...سأقول لك ما أحرق قلبي..(36).. لأنّ ما سأقوله لن يسّرك أبدا..(37) وبعدها تسترسل المرأة في ذكر كل شيء حتى الحوادث الصغيرة ذكرتها بالتفصيل لأنها كانت تعلم أنّ (الثابت هو حزن الإنسان ومأساته وليس فرحه..)(38) ، وربما لهذا السبب أرسلت إليه بالقرص المسجّل لتُسمعه ما في سويداء نفسها من مرارة فتحفر في قلبه مأساة أبدية ثابتة كان هو من نسج خيوطها، وهي بذلك تعلن عفوها عنه في كل شيء إلاّ مصابها في يوسف.وتختم خطابها بقولها: (مضى الذي كان يجمعنا. مضى إلى الأبد.

أعانك الإله فيما تبقى من عمرك. على ألمك وخوفك...)(39).

هـ/ روكينا:

كانت "روكينا" أو " رقية " المرأة الوحيدة الأكثر حقدا على زوجها كازانوفا ، لأنها لم تكن تحبّه، ولكن القدر ساقها إليه بعد أن أغرى كازانوفا أباها فقبل بزواجه منها، ولأجل ذلك عملت ما في وسعها لإيلامه، فكانت هي من قتلت " يوسف" من ذي قبل وهاهي تنتقم منه مرّة أخرى ، لأنها كانت تحسّ أنّ ما في قلبها كبير(... أكبر من عاصفة . عليه أن يسمعها في تفاصيلها ورياحها، أحبّ كازانوفا ذلك أم كرهه، بعدها ليحدث ما يحدث ، فهي لن تعود معنية به ستنتقل إلى بيتها الجديد الذي اشتراه لها عليلو من ماله الخاص..) .(40)

تعتبر " روكينا " من أعنف الزوجات خطابا، ولأجل ذلك نلفيها تحاول أن تسلط على لوط عنفا مضادا لما حلّ بها من زواجهما حيث حرمها من حبّها لعليلو، واشتراها كدمية من أبيها، وحينما سنحت لها الفرصة انطلق لسانها السليط عليه ألما وعذابا، فهي تحاول بكل ما لديها أن تسلّط عليه هيمنتها وتظهر له أنها الأقوى، في حين لوط في حال لا يقوى فيها على الحركة أو المقاومة تقول: (تريد أن نتسامح؟ أنت من طلب هذا . معك

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

حق. من الأفضل أن يرحل الإنسان عن هذه الأرض غير مثقل بجرائمه السابقة. لا مشكلة سيدي الكونت القاتل، هل تعلم على الأقل مقدار خرابك؟ يوم اشتريتني ، قتلتني. أخذت منّي كل شيء، بما في ذلك دمي ، أنفاسي ، أنيني ، عرقي، وبعض جسدي ، إلاّ ... أن أكون لك. قصة طويلة ، عليك أن تسمعها من البداية حتى الكلمة الأخيرة. تعرف جزءا منها لكن جزءها المظلم القاتل ، يغيب عنك..) (41).

إنّ خطاب "روكينا" لزوجها يظهر بوضوح عنفها وانتشائها بهيمنتها على كازانوفا أو لنقل محاولة تفكيك المركزية الذكورية، وأنّ هذه الهيمنة – الذكورية- ليست أبدية ولا ثابتة، إنها تمثّل المقاومة النسوية بامتياز ذلك على الأقل ما نتتشفّه من خلال خطابها الآتي: (...عذرا سيّدي الكونت لوط. هذا الخاتم ليس لك. تعرف جيّدا أنّ خاتمك رميته في الليلة الأولى في الحمّام وأنا أمسح الخليط اللزج من منيّك ، وقليلا من دمي ، ليس دم العذرية ، فذاك أخذه من استحقّني وحرمني منه بجبروتك ويقينك . لكن بسبب عنفك الشديد ، وكريّة الدم التي وضعتها لك ، حفاظا على عائلتي من الأذى ولأرضي فحولتك وأجعلك تنتشي بأكبر كذبة ابتدعتها الذكورة..) (42)..

لقد ظلت "روكينا" في عنفوانها الشديد حتى مع أبيها الذي كانت تهزّه بعنف لأنّه وافق على زواجها من كازانوفا ولم يعرها أدنى مشورة، بل وانقلبت من فتاة طيّعة إلى امرأة فظّة غليظة تمارس البغاء مع عشيقها عليلو كلمّا سمحت لها الظروف، تقول: (طوال السنة التي مضت ، كنتُ كلما خرجت أنت فجرا، أغلقت الأبواب كلها . وركضت نحو غرفة عليلو ، وأبقى معه طوال وقت غيابك ، أترك كاميرات المدخل الرئيسي مفتوحة . مساحة الرؤية فيها واسعة ، حتى لا تباغتني. تعلّقت بعليلو لدرجة الجنون، هل كان ذلك انتقاما منك، كان في قلبي غل كبير ، كلما نمت مع عليلو أشعر بالرغبة في المزيد وكأنّي لم أشفي غليلي، ربما أصبحت مريضة بسببك؟..) (43).

هكذا أذن تصبح " روكينا " تملك أنوثة قادرة على تفكيك الأنا الذكوري، وإن ظهرت مع زوجها كازانوفا تابعة له فإنها في حقيقة الأمر تضمر كرها شديدا شكّل كيانها، وأظهرت لزوجها بأنّه لم يكن فحلا البتة، وبالتالي انهيار امبراطورية الذكورة المزعومة لكازانوفا، وعندئذ تتلاشى وتتهدّم الهيمنة الذكورية، وتظهر للعيان الهيمنة النسوية في مقابل الفحولة/ أو الهيمنة الذكورية.

وعندئذ أيضا تصبح (.. الأنوثة المزعومة ليست غالبا شيئا آخر سوى شكل من المجاملة إزاء انتظارات ذكورية في شأن تضخيم الأنا(Ego). وبالنتيجة فإنّ علاقة التبعية إزاء الآخرين (وليس الرجال فقط) تنحو لأن تصبح مكوّنة لكيانهنّ) (44)

وهن خلال هذه القراءة يتبدّى لنا بوضوح ما تطرحه رواية "نساء كازانوفا" لهذا الموضوع السيسيولوجي ذي الأهمية القصوى في العصر الحديث من حيث تجسيد الكاتب لتفكيك مركزية الهيمنة الذكورية وإمكانية المقاومة النسوية في المجتمع العربي المؤسس على هيمنة الذكر والمعترف بها كونيا، ولأجل ذلك فالرواية ليست تبريرا لهذه الهيمنة الكونية ذاتها بقدر ما هي تجسيد لإمكانية الهيمنة النسوية ولو تجلّت في النص بمظهرها الخطابي وفي شكل إمكانية مقاومة العنف الرمزي للذكر/الفحل.

-الهوامش:

1- **فيصل درّاج ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1999، ص25.**
2- **واسيني الاعرج، نساء كازانوفا (رواية) موفم للنشر ، السداسي2 الجزائر 2016.**
3- **بيار بورديو، الهيمنة الذكورية تر: سلمان قعفراني ، مراجعة: ماهر تريمش، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت، أفريل 2009، ص30.**
4- **الرواية ص33.**
5- **الرواية ص35.**
6- **المرجع نفسه والصفحة نفسها.**
7- **بيار بورديو، الهيمنة الذكورية ، المرجع السابق، ص59.**
8- **المرجع نفسه، ص32.**
9- **المرجع نفسه، ص33**
10- **الرواية ص35.**
11- **الرواية ص36.**
12- **الرواية ص97.**
13- **الرواية ص98.**
14- **الرواية ص103.**
15- **الرواية ص104.**
16- **المرجع نفسه والصفحة نفسها.**
17- **الرواية ص105.**

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

18- الرواية ص138.
19- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
20- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، المرجع السابق، بتصرف ص91.
21- الرواية ص142.
22- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
23- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية ، المرجع السابق، ص60.
24- الرواية ص143.
25- الرواية ص144.
26- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية ، المرجع السابق ، ص72.
27- الرواية ص189.
28- الرواية ص194.
29- الرواية ص207.
30- الرواية ص239.
31- الرواية ص258.
32- الرواية ص291.
33- الرواية ص303.
34- الرواية ص298.
35- الرواية ص283.
36- الرواية ص274.
37- الرواية ص275.
38- الرواية ص304.
39- الرواية ص305.
40- الرواية ص318.
41- الرواية ص322.
42- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
43- الرواية ص355.
44- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية ، المرجع السابق ، ص103.

*** *** ***